

تفتح أبواب جحيم يغرق الناس في ظلامه. وقد تجاوز حدوده زلزلها بعنف، تلقي غاضبة بكل ما عليها بلا مبالاة ودون اكتراث، فتنهار مدن وتغرق أخرى، تتصدع سدود تخنق الأنهار وقد تنهار. رائحة الموت تعبق في شوارع يحتلها الحطام والرماد، يحوم ناجون بين الأنقاض دون اتجاه، «أريد ماما» تقول طفلة أتمت قبل أيام عامها الثالث، وهي ترتجف غارقة في دموعها لرجل إنقاذ في بزة حمراء انتشلها من بين الأنقاض. يقول لها «لا تغادري» يردف. فيزيد من قوة ضربات معوله، يستमित في الوصول إلى مصدر الصوت، إلى حيث تجلس تلك الطفلة، حذرة لا تثير انتباه أحد، تناولها قطعة حلوى قديمة أخرجتها من جيب معطفها، تنظر نحو رجل إنقاذ منهمك في إزالة أكوام من الركام، يستमित في الوصول إلى مصدر صوت يُهَيِّأ له أنه يسمعه. تبتعد بها مهرولة خوف أن يراها أو يشك فيها أحد، تحملها سيارة أزيلت عنها علامات ترقيم، تنطلق بسرعة غير مكتثرة لحطام أو دمار، تختفي فلا يعود يراها أحد. ينتبه رجل إنقاذ وقد انتشل طفلاً يتنفس أن الطفلة قد اختفت، يدور حول نفسه مثل نعامة في خطر محقق، يحاول أن يكون أكثر تحديداً، إطلاقاً لا أحد رأى طفلة ذات أوصاف يصفها بها. حين عاد إلى حيث ترك الطفل لم يجده، صار يصرخ ويبكي أين ذهب الطفلان؟» يمسك برجل تمزق وجهه جروح وتغطيه دماء من ياقة قميصه الممزقة ويصرخ «أين هما؟» «أخبرني» ينظر نحوه بدهشة وحيرة يصرخ هو الآخر «أين هم؟ قل لي»، تحيط به بضعة أشجار حرجية، تكاد تخلعها من جذورها، تصدر جذوعها طقطقة، يخرج للقاء سيارة تصل بسرعة، بين شفثيه سيجارة تلمع ذبالتها، يتشبث بها بشفتيه الجافتين، تلسع السيجارة وجنتها فتنتطفئ، يبصق وهو يسب ويلعن بألفاظ نابية، يتلفت حوله ويسرع بها هذه التاسعة تقول المرأة بصوت رفيع وحاد تملؤه قسوة تصل الشاحنة مساء غد يخبرها بينما تستدير عائدة إلى سيارة تلتحف العتمة في انتظارها. فإذا به يفتح على غرفة تكتظ بأطفال مقرفصين على فرش مهترئ يغطي أجزاء من أرضية حجرية عارية وباردة، يلقي بالطفلة إلى جوارهم، يأمرهم بأن يصمتوا، يركل أحدهم يقدم تغرق في حذاء قذر يغطيه الطين، وقد حاول التشبث بساقه وهو يدعوها باكياً عمو، تحاول الأصوات خوفاً أن تصمت، لكنها لا تستطيع الصمت فتواصل البكاء والأنين، حين خرج أعاد إغلاق القفل وأعاد الخزانة إلى مكانها، وخرج إلى حيث أشعل سيجارة، عند مساء اليوم التالي وقد تواصل هطل الأمطار وازداد غزارة، وعدداً من رجال بتياب صوفية ثقيلة، توقفت قرب البيت القديم، لا يرسلون أنوارها إلا عند مواطئ أقدامهم، يتناوبون على نقل أطفال، وقد قيدوا أيديهم وأقدامهم الصغيرة، وقد حفروا في أطرافها بعض ثقوب وسط بكاء وعويل مكتوم. يلقي بوميضه على وجوه قاسية لا تعرف الرحمة، تعود سريعاً إلى ظلام يعيش في أعماقها، يتخلله ضجيج انهيارات صخرية هائلة. تهتز في أعماق ضحلة، لا تبعد عن قشرة أرضية باتت لا تستقر ولا تهدأ. تغادر شاحنة بالكاد دار محركها، على مسافة أميال قليلة من دروب طينية وترايبية مهجورة، يقع سد عملاق، تجري مبتعدة عن جدران احتجازها. تواصل شاحنة سيرها تنقل أطفالاً مقيدين ومكمنين، يرافقه بضعة رجال يصغون بقلق إلى ضجيج انهيارات يتردد صدها في عتمة ليل بهيم عاصف، ويدب فيهم رعب إنه الجحيم» يقول أحدهم مرتعباً، لكن لا أحد منهم يعرف أن سداً قريباً قد انهار تحت ضربات اهتزازات ارتدادية لصفائح تكتونية. يقتحم طرقاً يلفها الظلام، لا أضواء سوى نور شاحنة باهت، عند زاوية منعطف حاد تكاد الشاحنة تنقلب، ويتدحرج بعيداً عبر جدران استنادية إلى أن يتهشم. «توقف» يأمر أحدهم السائق الذي يتجاهل أمره ويصرخ لا أستطيع، فإن أوقفتها فلن يقوى محرك على تحريكها بعد»، تواصل الشاحنة ابتلاع مسافات خطيرة عبر طرق وعرة وضيقة، يفلت مقوداً تمسك به طويلاً من بين يديه، يحمي وجهه بكلتا يديه من زجاج يتناثر، تلقي بالشاحنة إلى الخلف بعيداً، ترفعها عن يابسة سارت على طرقاتها، تقلبها على جوانبها، وتحمل مياه غاضبة أجساد أطفال مقيدة ومكمنة همدت أنفاسها، تجرفها بعيداً إلى جوف تيارات سريعة، تزداد سرعة رعة ولا تدري بعد إلى أين : ينتهي بها فيضانها . لا يزال رجل إنقاذ في زيه الأحمر، وفقدتهما في لحظة أسرع من طرفة عين، وقد كانت لحظة بين اللحظتين ظناً أنه امتلك العالم، يرفع يديه ضارِعاً نحو السماء،